

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله في كمالِ أفعاله، جَلَّتْ أسماءُهُ وَتَقَدَّسَتْ صفائُهُ، وتعالَتْ ذاته عن كُلِّ وَهْمٍ وفَهْمٍ، وعن كُلِّ منقولٍ ومعقولٍ، فله الحمد كما يليق بجلالِ وجهه وعظيمِ سلطانه، والصلاةُ والسلامُ تعظيماً لحضرةِ جنابِ نبيِّه، وتفخيماً لشأنِ شرفِ صفيِّه، حَبِيبُهُ المصطفى المبعوث رحمةً للعالمين، والهادي إلى الصراطِ المستقيمِ، وآله وصحبه الكواكب الدرية ذوى المفاخر السنية والأقدار العلية .. وبعد ..

الحضور الكريم ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن أول ما بُعثَ به الحبيبُ المصطفى ﷺ ودعا الناسَ إليه هو (كلمة التوحيد) بل وظل ما يَقْرُبُ من اثني عشر سنة يُرَغَّبُ الناسَ فيها، ونجد الآياتِ المكية كانت على كلمةِ التوحيد مشتملات، ذلك لأن التوحيد هو ركن العقائد في هذا الدين المتين، وبعد ذلك بدأ التزليل الحكيم لتنظيم العبادات والمعاملات، يتخللها القصص والحكم من السابقين، أنبياء ومرسلين وصالحين عليهم السلام أجمعين، والتوحيد ليس من النقاطِ الخلافية بين المذاهب على الإطلاق، و(كلمة التوحيد) ثابتة لا تتغير بأحكام الزمان والمكان كما أشرنا في خطابنا العام الماضي، ومما دعانا للرجوع إلى ذلك إنما هو تعمد البعض تغيير (كلمة التوحيد) بالكلية أو بالأحرى اختصارها وقصرها، ولنرجع بالتاريخ إلى أبو البشر سيدنا آدم عليه السلام، فعن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لما اقترف آدم الخطيئة قال: يارب أسألك بحق محمد

إلا غفرت لي؟ فقال الله: يا آدم وكيف عرفتَ محمداً ولم أخلقهُ؟ قال: يارب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك، ورفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليّ، ادعني بحقه فقد غفرتُ لك، ولولا محمد ما خلقتك¹

أى أن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وهى الباب الوحيد للدخول في دين الإسلام، لكن بعض المتوهمين قصرُوا التوحيد على النصف الأول من الشهادة، أى كلمة (لا إله إلا الله) بل وقسموها إلى توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية وتوحيد للأسماء والصفات، أى أنهم حذفوا النصف المكمل لكلمة التوحيد، ألا وهو (محمد رسول الله) وإذا قلنا معاذ الله بتوحيد الربوبية فمعنى ذلك أن هناك أرباب متعددة توحدوا في رب واحد، وكذلك للألوهية أن هناك أكثر من إله وتم توحيدهم، وهذا هو الشرك بعينه، والتوحيد هو الجمع في العقيدة بين الكلمتين لجعلهما كلمة واحدة متصلة غير منفصلة، فكلمة (لا إله إلا الله) وحدها (تهليل) أى ذكر الاسم (الله) منسوباً إلى الألوهية، وكلمة (محمد رسول الله) إقرار برسالة الحبيب المصطفى ﷺ، والتوحيد دائماً وأبداً هو الجمع بين الكلمتين في كلمة واحدة، ألا وهى (كلمة التوحيد).

فِيَا مُرِيدِي هُوَ التَّوْحِيدُ مَشْرُبُنَا وَغَايَةٌ فِي صُدُورِ رَبُّهَا قَبْلَ

¹ أنظر الحاكم في المستدرک والبيهقي في دلائل النبوة وکثر العمال.

أبنائي وبناتي ..

ننتقل بعد ذلك إلى أمرٍ شغل العامة والخاصة، بل صالَ وجالَ فيه مَنْ هُمْ ليسوا بفرسان ذلك الميدان، ألا وهو (تعظيم الشعائر والحرّمات) فقد قام بعض ذوى النفوس المريضة بالاعتداء على بعض مقامات ساداتنا ومشايخنا أولياء الله الصالحين، بل تناول أقرام الباع والمهم في ساحات المولد النبوي الشريف على القبة الخضراء ودعا إلى هدمها، ومما زاد الأمر أسفاً أن بعض المسئولين وصف ذلك بأنه (حرية رأى) وهذا القول قد رفضه كل العالم الإسلامي، حينما أراد أن يبرر رئيس الوزراء الدنماركي الرسوم المسيئة التي ظهرت بالصحف، بأنها (حرية رأى) فكيف نقبل ذلك من مسئول في بلاد اشتهرت بين العالم الإسلامي بحب المصطفى ﷺ، ونقول للجميع إن تعظيم الشعائر والحرّمات أمرٌ نص عليه الكتاب العزيز فقد قال تبارك وتعالى ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾² فالكعبة والصفة والمروة من شعائر الله وتعظيمها يدل على تقوى القلوب، بل جعل الله احدى الأنعام من شعائر الله بقوله ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾³ وأولى بتلك الحرمة الصالحين وآثارهم، فعن سيدنا عبدُ الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما قَالَ: ﴿رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ: مَا أَطْيَبَ وَأَطْيَبَ رِيحِكَ، مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِحُرْمَتُهُ

² الحج 32³ الحج 36

الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكَ، مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا⁴
 أى أن حرمة المؤمن عند الله أعظم من الكعبة، فما بالكم بحرمة
 الصالحين الصديقين الذين هم فى أعلى مراتب الإحسان؟ وما بالكم
 بحرمة الأنبياء، ثم حرمة الرسل الكرام، وأعلى من ذلك حرمة أولى
 العزم.

وأخيراً فما بالكم بحرمة سيد الخلق أجمعين والهادى إلى الصراط
 المستقيم سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

فكيف يجترأ أناس على قباب الأولياء الذين حرّم الله عداوتهم، بل برز
 لحرب مَنْ حاربهم، ألم يقل فى حديثه القدسى ﴿مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ
 آذَنْتُهِ بِالْحَرْبِ﴾⁵؟ ألم يقل ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ
 رَبِّهِ﴾⁶ فما بالكم بحرمة رسول الله ﷺ وحرمة قبته الشريفة؟ أوصل
 الأمر فى آخر الزمان إلى هذا الحد، بالمطالبة بهدمها، أيعظنون أن الحق
 ليس له أهل يزودون عنه بسواعدهم ورقابهم ودمائهم؟ بل انظروا إلى
 قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
 التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ
 تَحْمِلُهَا الْمَلَائِكَةُ﴾⁷ قال أهل التفاسير: أنهم كانوا إذا قاتلوا أحداً من
 الأعداء، يكون معهم (تابوت الميثاق) فكانوا يُنصرون ببركته، وبما
 جعلَ اللهُ فيه من السكينة، والبقية مما ترك آل موسى وآل هارونَ هي:

⁴ سنن ابن ماجه.

⁵ صحيح البخارى.

⁶ الحج 30

⁷ البقرة 248

عصا و ثياب و نعلا سيدنا موسى و سيدنا هارون، و لوحين من التوراة،
فانظروا أيها الأحبة بما يُنصرون على الأعداء، فحقاً صلوات ربي
وسلامه عليه (سيِّداً):

سَيِّدًا لَمْ تَزَلْ وَغَيْرِكَ زَالُوا وَجَمِيعًا إِلَى جَنَابِكَ آلُوا

أبنائي وبناتي ..

نخرج بعد هذا على أمرٍ من الأمور الحياتية المهمة في الدين وهو أمر
الشورى، فالبعض قد ربط مفهوم الشورى بمفهوم الديمقراطية الحديثة،
وهذا خلطٌ بين المعقول والمنقول، فالديمقراطية تعنى أن لكل فرد حق في
إبداء رأيه، فإن سلّمنا بصحة هذا المفهوم، فلا بد أن نُميّزَ بين إبداء
الرأى وفرض الرأى، ومع ذلك فالشورى بخلاف ذلك، لأن المشاورة
تبدأ من ولى الأمر الذى يطرح الأمر للشورى أولاً، وثانياً يشاور أهل
الاختصاص وليس كل الجماعة، وثالثاً يقرر وحده حتى ولو كان القرار
بخلاف رأى المستشارين، ولنوضح ذلك فيما يلى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ
لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾⁸ هذا نص الشورى في الكتاب الكريم، فإن الشورى
أمر يُقربُ الناسَ من الخليفة، من باب الرحمة واللين، وهو الذى
يشاورهم وليسوا هم الذين يفرضون عليه الأمر، ولنراجع معاً هذا

الموقف من السنة المطهرة في غزوة بدر الكبرى، حينما جاء النبي ﷺ ونزل عند أول بئر، وجاء الحباب بن المنذر وقال: يا رسول الله أمّنزل أنزلك الله فلا قول لأحد، أم هي الحرب والمكيدة؟ قال: لا، بل هي الحرب والمكيدة، فلو قال الحبيب هو أمر بطن، فما كان للحباب أن يتكلم، بل قال ﷺ (نزل قبل البئر نشرب منها ونمنعهم) بعد أن فتح له رسول الله ﷺ باب المشورة.

الأمر الثاني: أن الشورى تكون لأهل الاختصاص، كما كان في غزوة الأحزاب، حينما قال المصطفى ﷺ ﴿حَتَّىٰ أَشَاوَرَ السُّعُودَ﴾ أي سادة أهل المدينة، لأنهم أهل الدار وأدرى بأحوال ديارهم، ولم يشاور المهاجرين.

الأمر الثالث: فالشورى غير ملزمة لأن الآية لم تقل (وإذا عزمتم فتواكلوا) بل جاء الأمر بالإفراد ﴿... فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾⁸ وهكذا نجد الصديق ﷺ أول خلافته حينما بدأت أخبار الردة تتوارد على المدينة، اجتمع كبار الصحابة وقرروا عدم إنفاذ جيش أسامة بن زيد ﷺ إلى تخوم الروم وأرسلوا سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بقرارهم إلى الخليفة أبو بكر ﷺ بمشورة وقرار الصحابة، فما كان من الصديق ﷺ إلا أن مضى فيما عزم عليه الأمر وهو محاربة المرتدين.

إِنْ مَفْهُومَ سَنَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مَفْهُومَ فَهْمِي لِذَلِكَ قَالَ ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ﴾⁹ بِمَعْنَى أَنَّ الْعَضَّ بِالنَّوَاجِدِ يَكُونُ عَلَى سُنَّةِ الْخَلِيفَةِ الَّتِي أَنْتَ فِي عَصْرِهِ، وَعَدَمُ الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ بِحُجَّةِ التَّمَسُّكِ بِسُنَّةٍ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ، وَلِلتَّوَدُّعِ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْمَفْهُومِ نَجِدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَأْمُرِ النَّاسَ بِصَلَاةِ الْقِيَامِ فِي الْمَسْجِدِ، بَلْ قَالَ ﷺ ﴿خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا﴾⁵ وَمَضَى عَلَى تِلْكَ السُّنَّةِ الْخَلِيفَةُ الْأَوَّلُ، وَلَكِنْ الْخَلِيفَةُ الثَّانِي جَمَعَ النَّاسَ لَهَا بِالْمَسَاجِدِ بَلْ وَزَادَ فِيهَا، فَهَلْ سَيَدُنَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَخَالَفَ لِسُنَّةٍ مِنْ قَبْلِهِ؟! وَلَمَّا رَجَعَ سَيَدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الشَّامِ، فِي خِلَافَةِ سَيَدُنَا عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّ عِثْمَانَ يَصَلِّي أَرْبَعَ بَعْدَ الطَّوَافِ، فَاسْتَرْجِعْ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: كُنَّا نَصَلِّي رَكْعَتَيْنِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، ثُمَّ قَامَ فَأَتَمَّ أَرْبَعَ رَكْعَاتٍ. وَهَذَا سَيَدُنَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَيْفُ سَلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ وَفُتِحَتِ الْبِلَادُ عَلَى يَدَيْهِ، وَعَزَلَهُ الْفَارُوقُ دُونَ إِبْدَاءِ الْأَسْبَابِ وَلَمْ يَشَاوِرْ أَحَدًا، وَأَرْسَلَ لَهُ سَيَدُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَعْزَلَهُ، وَيُقَسِّمَ عَلَيْهِ مَالَهُ الَّذِي هُوَ مَغَانِمُهُ، فَجَدَّ أَنْ سَيَدُنَا خَالِدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ.

نَزَلَ الصَّحَابَةُ عِنْدَ حُكْمِ مَلِيكِهِمْ غَنِمُوا وَكَانَ الرَّفْدُ وَالْإِرْفَادُ

⁹ سنن الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

أبنائي وبناتي ..

يقول الحقُّ تبارك وتعالى في محكم آياته ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾¹⁰ ولذلك إذا أردت أن تكون من المفلحين فلا بد أن تتفاعل مع المجتمع الذي تعيش فيه، سواء كان صغيراً كالأسرة والقرية أو الحى، أو كان كبيراً كالدولة بل والعالم بأسره، ولا تكن مشاركتك كلامية فقط بالنقد أو المدح أو ادعاء انشغالك بالعبادة عن أحوال الناس.

يقول رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿لَا تَكُونُوا عَيَابِينَ وَلَا مَدَاحِينَ وَلَا طَعَانِينَ وَلَا مَتَمَاوِينَ﴾¹¹ والمتماوت: من صفة العابد المرائى.

ولا تدعى انشغالك بالنهى عن المنكر بتتبع عورات الناس لتفضحهم وتكشف ما ستره الله، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ﴿صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفِضِ الْإِيمَانَ إِلَى قَلْبِهِ لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ﴾¹².

ولا تكن ممن لا يثبت على رأى، فيكون مرة مع هذا، ومرة مع ذاك، وذلك لضعف رأيه، فقد هنى الحبيب عن تلك الفعلة فقال ﷺ ﴿لَا

¹⁰ آل عمران 104

¹¹ ابن عساکر في كثر العمال.

¹² سنن الترمذى.

تَكُونُوا إِمَّةً، تَقُولُونَ إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنًا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا*.

وعلى الإنسان أن يخرج من أنانيته والعيش لنفسه فقط دون أن يكون إيجابياً وفعالاً، فعن سيدنا حذيفة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم *مَنْ لَمْ يَهْتَمْ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يَصْبَحْ وَيَمَسِ نَاصِحاً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِإِمَامِهِ وَلِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ*¹³.

فالإنسان لا بد أن يكون في خدمة المجتمع وليس لذاته فقط وأن يعمل من أجل المبادئ الإنسانية الخيرة في شتى المجالات حسب تخصصه، فالطبيب لماذا لا يُخصص ساعات من وقته للكشف ووصف الدواء لسكان حيّه دون مقابل، والمدرس لماذا لا يساعد الطلبة من أبناء قريته بدون مقابل، والأمثلة على ذلك كثيرة.

ولنوسع الدائرة أكثر، ماذا عن النساء والأطفال الذين يُقتلون في مناطق عديدة من العالم في الحروب العرقية أو العنصرية الدينية، لماذا لا تساعد في إسكانهم ومطعمهم وملبسهم، بل لماذا لا نقوم برفع المستوى الثقافي عند المرأة في تلك المناطق المتخلفة حضارياً، لتبني هي بعد ذلك تثقيف أطفالها ضد العنصرية البغيضة، سواء كانت عرقية أو دينية، فإن معظم هذه الحروب تقوم على أساس يخفى عن المتحاربين أنفسهم، فالنار يُشعلها أصحاب المصالح الاقتصادية وتجار أسلحة الدمار الشامل، فكم من سرقات لثروات الشعوب تحدث أثناء انشغال أهل البلد في حربهم،

¹³ الاوسط والصغير للطبراني وجمع الجوامع للسيوطي.

وكم من تجارب للأسلحة الكيماوية والجرثومية، يتم تجربتها - بعد انتاجها في الدول التي تدعى أنها دول متحضرة- على المساكين من النساء والأطفال أثناء انشغال الرجال في التقاتل مع بعضهم البعض، متفاخرين بأسلحة في أيديهم وليس على أجسادهم ما يوارىها من العرى، ولو أنفق ثمن هذا السلاح لكفاهم طعاماً وشراباً ولباساً، بدلاً من مد أكفّ الضراعة لاستجداء المنظمات الدولية لإيواء الفارين من مناطق الحرب، وتلك المنظمات لا يقل دور بعضها خطورة عن تجار السلاح.

لماذا لا نتكاتف جميعاً في مواجهة نفاق الساسة وسماسرة الإعلام، الذين يقبلون الحقائق رأساً على عقب، لإقناع شعوبهم بما يخدم نزواتهم وأفكارهم، غير مكترثين بما يحدث لأبناء وطنهم، كأن الله خلق الناس ليكونوا عبيدا للحكام، ويروج لهذا أجهزة الإعلام التي تزين للناس أنهم في رغد العيش، ويشغلوهم بتفاهات من الأخبار وإثارة الفتن وبالتخوف من حين لآخر كي ينخدعوا عن أحوالهم وحقوقهم.

ثم نقف سوياً أمام حرمة الأموال العامة، وجمال الطبيعة للبيئة المحيطة بكل منا، لأن المصالح والمؤسسات والمركبات العامة، والمدارس والمستشفيات والحدائق والشوارع ملك لنا وليست لفرد بعينه، أى أنها ملك للمجتمع الذى تعيش فيه، فلا ترضى بالقذارة والقمامة بالشوارع، ولا تساعد على اتساخها، بل على شباب الأحياء والقرى تنظيف وتجميل مساكنهم وعدم الاعتداء على حرمة الطريق، وبدلاً من

أن تقطف وردة أعجبتك ازرع ورودا وزهورا سواء أمام بيتك أو في حديقة عامة وقم برعايتها كي تسعد الآخرين، وتجمل بلدك فلا تؤذى ناظريك على الأقل، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ﴾¹⁴.

ليس المهم أن تعمل فحسب، بل تجعل عملك لوجه مأمون الجناب خالصاً ليس فيه رياء، وهو الشرك الخفى الذى حذر منه الحبيب المصطفى ﷺ، فعن شداد بن أوس أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقوله فذكرته فأبكاني، سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشَّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَشْرِكُ أُمَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا حَجْرًا وَلَا وَثَنًا وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ﴾.

ويحكى ابن جرير أن رجلاً دخل إلى المسجد النبوى فصلى ركعتين سريعتين وهم بالخروج، فناداه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وقال له: أعد صلاتك، فأعاد الرجل وصلى فأطال، فلما فرغ من صلاته سأله سيدنا عمر: أى الصلاتين أفضل؟ فقال الرجل: الأولى، فسأله سيدنا عمر لماذا؟ فقال الرجل لأنها كانت لوجه الله خالصة، أما الثانية فقد أطلت فيها خوفاً منك، فضحك سيدنا عمر وأقره على كلامه.

أبنائي وبناتي ..

ولنعرج بعد هذا إلى الفن الذى إذا تحدثت عنه فى هذا الزمان انصرفت الأذهان فقط إلى المعازف ومزامير الشيطان، وهنا نسأل أليس هناك من الفنون غير تلك المعانى الرخيصة؟ فأصناف الفنون كثيرة كأصناف العلوم، أليس الرسم والمسرح والموسيقى والغناء والتصوير فيه ما أقره المصطفى ﷺ وفيه ما نهى عنه، إن الفنون الحيرة على اختلاف ألوانها هى الروافد الفاعلة المؤثرة التى تُثرى وجدان الثقافة وترتقى بالمجتمع وتسهم فى إعادة بنى الإنسان.

فانظروا قول سيدنا أنس رضي الله عنه ووصفه دخول الحبيب ﷺ المدينة فيقول: فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشئ فرحهم برسول الله ﷺ، حتى جعل الإمام يقلن: قَدَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وخرجت جوارى من بنى النجار يضربن بالدف ويقلن:

نحن جوارى من بنى النجار يا حبذا بمحمد من جار

وجاء وفد من بنى النجار متقلدين سيوفهم ويمشون حول النبي ﷺ وصاحبه.

وفى رواية أخرى قال: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شئ وصعدت ذوات الخدور على الأجاجين يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعى الله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير ساع

فقال ﷺ ﴿أَتُحِبُّونِي؟ قُلْنَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ ﷺ: إِنْ قَلْبِي يُحِبُّكَ﴾ وفي رواية ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ قَلْبِي يُحِبُّكُمْ﴾.

ويدل لذلك أيضاً ما جاء عن ابن عباس مرفوعاً أن أصحاب النبي ﷺ جلسوا سباطين وجاءت جارية يقال لها سيرين معها مزهر تختلف به بين القوم وهي تغنيهم وتقول:

هَلْ عَلَيَّ وَيُحْكَمُ إِنْ لَهَوْتُ مِنْ حَرَجٍ

فتبسم النبي ﷺ وقال لا حرج، وما روى عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت:

دخل عليّ أبو بكر وعندي جاريتان من جوارى الأنصار يغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بُعث، قالت وليستا بالمغنيتين فقال أبو بكر أمزور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ وذلك يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ دعها يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا.

وهذا الحبيب المصطفى يسمع إلى شعر أمية بن أبي الصلت من الصحابي السائب بن يزيد رضي الله عنه ويستمتع من الخنساء في المسجد وحينما تتوقف يقول لها إيه يا خناس.

وهناك الكثير والكثير في هذا المجال المختلف فيه عند الناس، فما بالك من القياس على الرسم والمسرح وسماع الموسيقى وخلافه من أنواع الفنون، التي تُنمّي الإحساس عند الناس وترتقي بأذواقهم بدلاً من تحجرهم وتبلد أحاسيسهم، ألم يستمع الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان إلى جاره المغني بل وضمنه وأخرجه من السجن حين شكاه

جيرانه؟ ألم يكن الإمام أبو إسحاق الموصلي من أساطين العزف على العود، وكان يبدأ مجلسه في الحديث الشريف بالعزف ساعة على عوده ثم يبدأ في روايته للحديث الشريف؟

ولنستمع إلى قول شيخنا أبي العينين رحمته الله:

بِجَنكِ وَطَنْبُورٍ وَقَانُونٍ مُزْمَرٍ وَعُودٍ وَسَنْطِيرٍ إِلَى حَضْرَةِ الْقُدْسِ
وسيدى فخر الدين رحمته الله يقول:
وَأَعَزَفُ أَلْحَانِي فَيَطْرَبُ عَاشِقِي وَأُوقِدُ مَشْكَاتَ الْمُرِيدِ بِلَمَعَتِي

أبنائي وبناتي ..

عن فضالة بن عبيد رحمته الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: ألا أخبركم بالمؤمن؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مِنْ سَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ ¹⁵

ويقول الإمام فخر الدين رحمته الله:

الْوَقْتُ فِي سُنَنِ الْعِبَادَةِ قَدْ فَتَى وَأَنَا بِقَوْلِي مُنْذِرٌ وَبَشِيرٌ

والوقت لا يعود إلى الوراء، فالمال يذهب ويرجع، والصحة تذهب وتعود، ولكن لا يمكنك أن تعيد الزمن مرة أخرى، لذا عليك بعمارة وقتك إما بالنوافل لأن الفرائض لا تغطي اليوم كاملاً، أو السعي في حاجة أهلك، أو حاجة من يحتاج مساعدتك، فإن الله في عونك مادامت

¹⁵ سنن ابن ماجه.

في عون أخيك، وتلك هي البشرية، أما الإنذار: فعن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها﴾.

وَلْتَعْمُرُوا الْأَوْقَاتَ بِالذِّكْرِ الَّذِي يَشْفِي الصُّدُورَ فَتَصْطَلِيَ بِغَرَامِي

وعليك أن تعقل الكلام قبل أن تنفوه به، فقد كان مولانا الشيخ إبراهيم محمد عثمان عبده البرهاني رضي الله عنه يقول: إن الله قد خلق لك أذنين مفتوحتين فاسمع ما شئت، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك، وخلق لك لسان واحد ووضع عليه قفلين، أحدهما من العظم وهي الأسنان، وآخر من اللحم وهما الشفتان، ففكر مرتين قبل أن تتكلم حتى لا تندم، لأن الكلمة لا يمكن استرجاعها.

وكذلك إذا أُتيحت لك فرصة لخدمة الدين أو خدمة الناس، فلا تتردد ليس خوفاً على الدين فإن الله مؤيده برجالٍ لخدمته، ولكن خوفاً عليك أنت من أن تُحرم من فرصة أُتيحت لك وأضعفتها بيدك، ولا يمكنك استرجاع هذه الفرصة مرة أخرى، وخذ من شبابك إلى هرمك، ومن قوتك إلى ضعفك، ومن صحتك إلى مرضك، وهذه الأمور لا تدع فيها منطق عقلك يُثنى عزمك عن المجاهدة، فإن العقل لا يُدرك إلا بالحواس ولا تنسى أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى.

رِفْقًا بِعَقْلِكَ ذَاكَ مَا حُمِّلْتَهُ كُنْ رَاحِمًا فَالْخَيْرُ لِلرُّحَمَاءِ

يصعب على الإنسان الاعتذار عن الخطأ، إلا إذا عرف قيمة ما يجنيه من الاعتراف بهذا الخطأ، ويندم على الفرصة بعد ضياعها، ويحاول

تداركها ولو بعد فواتها لعلمه بقيمتها، ويسعى لاسترجاع شبابه الذى مضى دون رجعة، ووقته الذى أفل دون استغلال، مع علمه باستحالة ذلك.

أبنائى وبناتى ..

إن أس الرضاء فى التسامح، وأس البلاء فى التشاحن، وكم من ليلة ذكّرت السنّة النبوية أن من أفضاها أن الله يغفر فيها لكل مسلم إلا المتشاحنين، فلما تحرم نفسك من ليالى المغفرة والجود والرحمات؟ وتغلق أبواب قلبك عن التسامح الذى هو من شيم العظماء؟ فسيدى فخر الدين رحمته الله يقول:

بَيْنَ الرَّجَالِ عُرْفُتُ بِالصَّفَحَاتِ

فهلا تذكرت حسنات أخيك عندما ذكّرت سيئاته، حتى ولو لم يكن له حسنات - وهو ضرب من الخيال - فما الذى يضريك أن تعطى مَنْ حَرَمَكَ، وأن تعفو عن ظلمك، وأن تصل من قطعك، خَبْرْنَا بِاللَّهِ عَلَيْكَ مَا هُوَ الضَّرْرُ الَّذِى يَقَعُ عَلَيْكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ مَعَ كُلِّ خَلْقٍ اللَّهُ؟
مَا ضَرَّ لَوْ بَاتَ الْمُحِبُّ وَقَدْ عَفَا إِنَّ التَّظَالِمَ بُؤْرَةٌ الْإِظْلَامِ
كن شجاعاً ضد نفسك، فالكيس من دان نفسه ورجع عن خطأه وأقر بذنبه فى حق أخيه، والأكثر شجاعة هو من استكان لثورة غضب أخيه، وخضع له باللين من القول حرصاً على أخوته وصحبته، فالكلام اللين يَغْلِبُ الْحَقَّ الْبَيِّنَ، وأصحاب الهمم العالية مقاماتهم فى الخلق سامية.

فيجب عليك الترفع عن الصغائر والتجاوز عن الخلافات، وعدم انتهاك الحرمات، ومساعدة الضعيف ونصرة المظلوم، وعلى الشائر النظر إلى نفسه نظرة نقد وحساب كي لا يقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها من كانوا قبله حينما كان زمام الأمور بأيديهم، وإلا فما الفرق بين هذا وذاك.

شأن الكرام عن اللئام ترفع هي ذى بحق شيمة العظماء
 لقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا
 استبدلوا بنا ثم لم يكونوا أمثالنا؟ قال: وكان سلمان بجنبه ف ضرب
 رسول الله ﷺ فخذ سلمان وقال هذا وأصحابه، والذي نفسي بيده لو
 كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس.¹²

والصحابي الجليل القعقاع بن عمرو وهو الذي قال فيه سيدنا أبو بكر
 الصديق رضي الله عنه: صوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل.

وهذا سيدنا أبو أيوب الأنصاري وقد قارب الثمانون من العمر يخرج
 للجهاد بفرسه وسيفه ودرعه، أي همّة هذه التي لا تطاؤها همّة؟!!

أبارك باسم الله في كل همّة روافد مدى من عظيم الروافد

فقد يجد الجبان مائة حل لمشكلته ولا يعجبه سوى حل واحد منها وهو
 الفرار والركون للرقاد، ولكن انظر قول سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه سيف
 الله المسلول على الأعداء وسيف الهمّة المسلول على الجبناء (لقد
 شهدت مائة زحف أو نحوها وما في بدني موضع شبر إلا وبه ضربة أو
 طعنة أو رمية وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت

أعين الجبناء) والحق كل الحق والصدق كل الصدق ما قاله سيدي فخر
الدين رضي الله عنه:

وَيُحْمَدُ عِنْدَ اللَّهِ عَبْدٌ مُجَاهِدٌ وَذُو جَلَدٍ فِي كُلِّ أَمْرٍ مُكَابِدٍ

وكل عام وأنتم بخير
وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

